وجه القمر

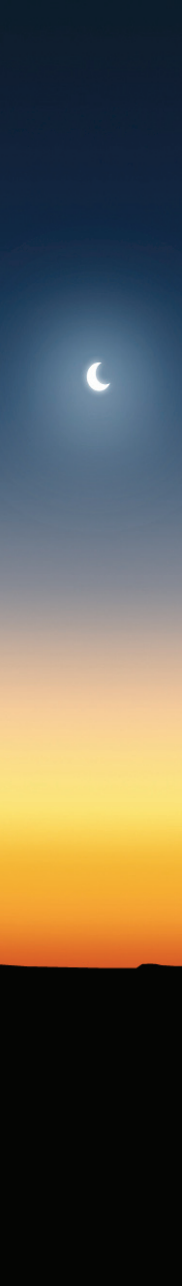

رواية للشباب واليافعين

د.طارق البكري

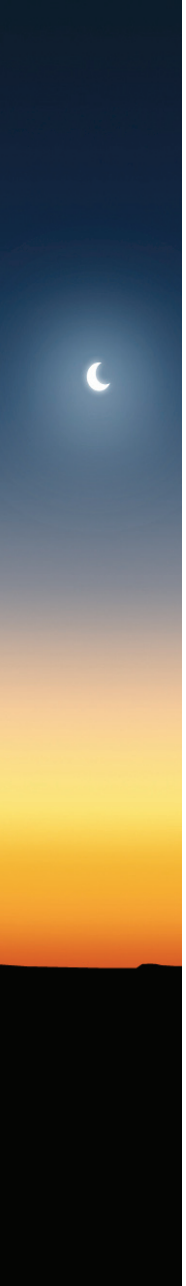

إهداء

إلى كل اليافعين والشباب العرب

مع محبتي

١ –

حنين إلى الماضي

كلمة واحدة تثير مشكلة..

والمشاكل عادة تُعرف بداياتها؛ أمّا نهاياتها فحدودها البحر..

انتقاده جريمة تستحق الاقتصاص، وإنْ كانت النتيجة قطيعة.. ومفارقة صديق وحتى حبيب.

الكلام عندما يسمعه المحب من حبيبه غالباً ما يكون سيد الكلام وألذّه، ولو كان بارداً وصلباً وجافاً أحياناً.. أو ساخناً – بل لاهباً – في بعض الأحايين.. فهو أحلى كلام.. وأبرع ما يقال.. لكنْ عندما تتبدل الصورة؛ لا يعود الكلام سوى جرح على طريق.. والصورة لا تتبدل إلا في ظروفها..

لم يكن يوماً كما هو الآن..

الوحدة تملأ ذاته.. تشعره بضجيج ثائر وحنين آسر متواصل إلى ماض صاخب بذكريات لا تزول.

ربما هذا هو السبب الذي جعله أسير ذاته، وأسكنه فراغات زمن متعاقب يستجدي وجعاً ويغالي في صرامته.. والوجع المرصود – المرصوص بعناية – كامن في الأعماق.

والأعماق مكان تستقر فيه الأشياء المثقلة بأحمالها..

الأشياء التي ليس بمقدورها أنْ تسبح ولا أنْ تطفوَ على سطح الماء لتصل إلى الضفة بأمان..

وهذه الأعماق تسع كل شيء، تتراكم فيها السفن المحطمة.. الكبيرة منها والصغيرة..

وأحياناً تستقر فيها الطائرات العملاقة.. بعد أنْ تفقد هيبتها وقدرتها على الطيران والنجاة..

أمّا ملوك الأعماق من حيتان وقروش ووحوش.. فعندما يحين أجَلُها فإنّها تفرُّ من دفء العمق المظلم وتلقي بجسدها الضخم أمام الضوء المنثور، تغسل وجهها بلوحات من نور.. لا ترضى بأن يُسكِنها الموت في أعماق الأعماق.. لا تستسلم له ولا ترفع راياتها البيض.

فما أصعب فراغات الزمن.. التي تنبت من الأعماق.

تلك الفراغات التي لا يملؤها غير الألم..

ألمٌ متكرر متصاعد بلا تدرُّج.. كآلام مرضى عضال مزمن لا يرجى شفاؤه، يرخي بثقله على الأحاسيس والمشاعر كلِّها حتى الثمالة.

ينقضُّ على المرء، ينسكبُ على المشاعر، يوقظُ في سُبات الأعماق ناراً متأجّجه.. يُشعل في حناياه لهيباً لا ينطفىء.. فيتشظى قلبه، وتنكبتُ خيالاته، وتعصف في نفسه كل الرؤى المتهكّمة. وقد قيل:

كفى حزناً للمرء ما عاش أنّه ببين حبيب لا يزال يروّع

فوا حزني لو ينفع الحزن أهله ويا جزعي إن كان للنفس مجزع

فأي قلوب لا تذوب لما أرى وأي عيون لا تجود فتدمع

(جميل بثينة)

٢ –
وجهٌ أسمر

وجْهٌ أسمر تفتّحتُ وروده على بياض خدٍّ من طول معاداة للشمس..
شمس لم تعد تدخل داره بإذن ولا بغير إذن..
لا يَسمح لشعاعها بأنْ يتسللَ من خلف ستارة، لتلامس البلاط البنفسجي المزنر بالبياض، والمكحّل بورد منشرح الصدر.. يتباهى بألوانه تحت الضوء..
في كلِّ زاوية من زوايا البيت طوق الماضي، وبقايا ثائرة حنيناً لا يتوقف، وتوقاً لا يعرف التناسي أو الهذيان..
مَنْ أيّ نسيج تُصطنعُ الذكريات.. ومن أيِّ صخْر تُنحت المدامع وتسكب العبرات؟
وكيف تتشكل في الضمائر هذه النوازع المرجانية.. شوقاً لمن نحب؟
والذكريات هي عادةٌ إدمانية مزمنة في النفس التوّاقة إلى الأمس..
عادة ما تكون واهنة بسخاء، سامقة بدهاء..
تتعمْلَق في سفحها بتحفُّز..

قادرة على الصمود رغم الأهواء والصراعات والتحولات..
لكنّها ليست سوى جبل جليد يذوي شيئاً فشيئاً مع إشراقة كل شمس واصفرار قرصها، حين تقذف حممها على رؤوس الخلق بلا توقف ولا إشفاق..
غير أنّ الشمس لم تدنُ بعدُ من هامة هذا الجبل الجليدي الشامخ.. الصامد في وجه تقلُّب الفصول.. المعانق بشوق حديدي وتداً راسخاً في الأرض، يعاند الريح، ويتثاقل على الرحيل.

٣–
أغلى الناس

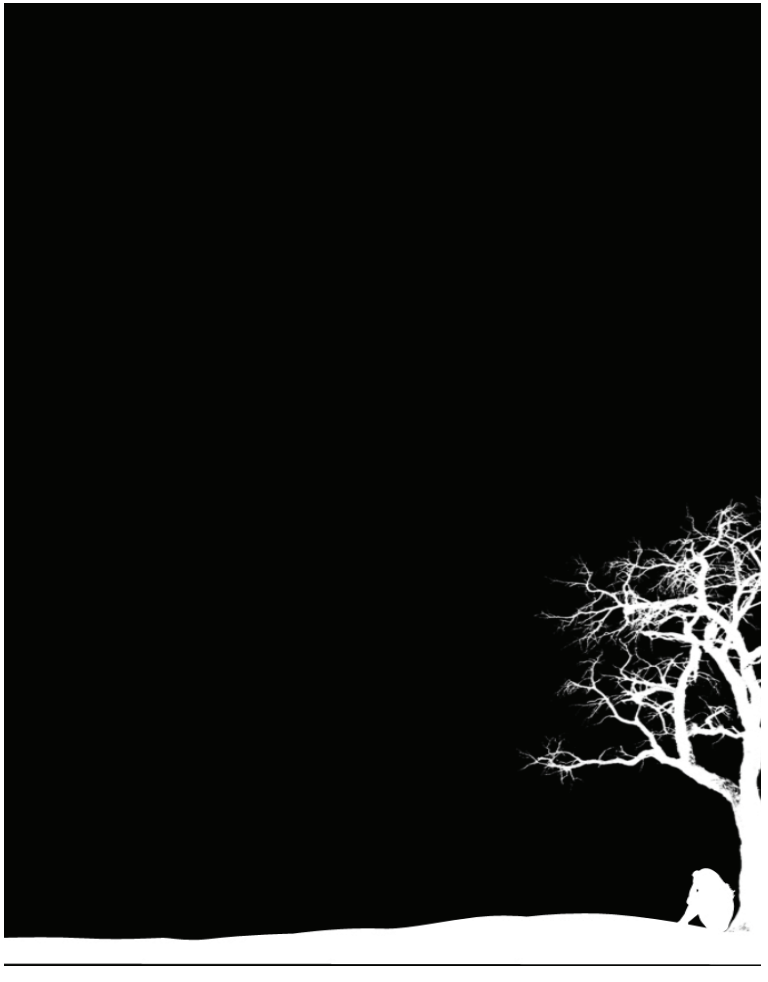

طـوال الفترة الماضية لم تكن لديه رغبة بلقـاء أحد، أو الاستماع لأيٍّ كان.. وحتى إلى نشرة الأخبار من راديو السيارة..

تلـك السيارة الفارهة الحديثـة – التي ورثها عن أبيه – بلونهـا الأخضر المشع كلون عينيّ أمه.. ولون عينيه.. لم يجرؤ على قيادتها يوماً واحداً..

باعها بعد مدة قصيرة جداً من موت صاحبها.. فهو لا يريد القيادة.. ولا التنقل على الطرقات ومواجهة أمواج السيارات العاتية فوق الإسفلت..

السيارات شرٌّ مستطير.. والطرقات وحش خطير، سَلبا منه أغلى الناس.

وعندما يفقد الإنسان غواليه يتقمصهم، يعانق خيالاتهم في أشيائهم، في آثارهم التي تنبضـ بكل مرأى بهم.. تسقط أمامه معايير الزمن.. وتتوقف الحياة عند ماضيهم.. ويتجمد المستقبل لحظة فراقهم.

٤ –
سمات فريدة

شعـره كستنائي ناعم ينسدل على خديه كشلال أسود هادر منسكب من علٍ على صفحة من صخر كلسي ناصع البياض..

عيناه الواسعتان مسكونتان بلون نبيذي معجون برغوة تطفو كحبات لؤلؤ منثور على صفحة ماء النهر.

جيده ترتفع فوق منكبين عريضين، وعلى جبينه تدور حلبة مصارعة..

لكنّه لا يعبأ بكل هذه السِّمَات الفريدة..

في حـين أنّ الشباب من حوله يدركون أنّه آسر لقلوب الصبايا بطلته البهيّة.. وهامته السَنيّة، واعتدال قامته الفتية..

لم يكـن زياد في سني عمـره التي لا تجاوز الواحدة والعشرين مثـل أقرانه الشباب اليافعين..

اللحظـات النـادرة التـي كان يظهر فيها في الشـارع الذي يقع فيـه منزله لا تحدث دائماً..

فمنذ ذلك اليوم الحزين لم يخرج إلى الضوء إلا لضرورة.

كان خروجـه يقـلُّ بتدرج منتظم مـع الأيام، حتـى انقطع عن الظهور أمـام النّاس تماماً..

طلب من حارسـ العمارة التي يقطن فيها أنْ يؤمّن له حاجاته الأساسية مرة واحدة في الأسبوع، دون تواصل مباشر بينهما، فحاجاته بسيطة متكررة، وليس عنده طلبات يومية جديدة..

حتى نوع الطعام كان يختاره الحارس له على مزاجه..

لم يعترض زياد يوماً.. ولم يشتهِ نوعاً محدداً من الطعام..

المهـم أن تكـون مـع كلِّ وجبة (سلطـة الخسّ مـع جبنة بلغاريـة) كما كانـت أمُّه تفضّلها..

ولـو اضُطر لحاجة ضرورية – ولا يحـدث هذا إلا نادراً – كتبَ للحارس ما يريد على ورقة صغيرة ثم يعطيه إيّاها من وراء الباب.

وعندما يأتي الحارس يضع الطعام وما يطلبه عند الباب.. ثم يقرع الجرس ويرحل..

في الأشهـر الأخيرة لم يخـرج سوى مرة واحدة أو مرتين فقط، مـا دفع فضولياً من جيرانه في إحـدى هاتين المرتين على اللحاق به والسير خلفه، ليشبع نهمه الفضولي ويكشف «سرّه»..

الخطوات كانت دقيقة ومحسوبة..

دقائق عند الطبيب..

لحظات في الصيدلية..

وفي طريق العودة؛ زيارة إلى المقبرة.. ودموع عند قبري أمه وأبيه.

٥ –

اعتراض!

لم يكن بموقفه الصامت الحزين يسعى ليبدي اعتراضاً على مصيرهما..

وهل يفيد الاعتراض على حكم القدر؟

رضي زياد بقضاء الله وقدره.. لكنّه لم يستطع التملُّص من عالم الأحزان.

شهور ثقيلة مرّت على يوم وفاتهما..

منذ ذلك اليوم توقفت الحياة عنده.. وانتهى الزمن..

وما معنى الزمن من غير حياة يزيّنها رفقاء يعيش الطير في عشهم..

وهل هناك حياة أكبر من أم؟ ورفيق أغلى من أب؟

وكيف ينسى الإنسان أجمل لحظات العمر دون أن يقف عند كل تفاصيلها وهنيهاتها، ويتسمّر أمام شريط الذكريات التي تفنى ولا يبقى منها سوى صور، غالباً من تمحى مع مرور الزمن؟!

هي (جراح على الطريق) تندمل مع الوقت.. حتى جراح القلب تشفى.. وتبقى جراح الروح.

وكم من حبيب مات محبوبه فاستبدله بآخر بعد حين..

وكم فارق الناس من أحباء ومضت الحياة إلى الأمام بلا توقف وانتظار وانحسار..

هكذا هي الحياة: موت ونماء.. فرح وشقاء... انتصار وانكفاء..

فلا يمكن لموت أنْ يوقف الأرض عن دورانها.. ولا الشمس عن إشراقها.. ولا الكون عن اتساعه والبركان عن ثورانه..

٦ –

إلى متى يا زياد؟

في الأسابيع الأولى التي أعقبت موت والديه تخاصم زياد مع بعض زواره الذين حاولوا برفق أن يبعدوه عن ظلِّ الموت الذي بات غارقاً فيه حتى التوحد..

كان صوته يعلو فوق صوت من يسديه نصحاً..

قالتْ له يوماً، في الذكرى الأربعين حيث اعتاد الناس على التعزية في مثل التوقيت من يوم الدفن.. كانت خلفه واقفة وظهره إليها ينظر ساهياً ساهماً إلى اللاشيء لا يريد عزاء ولا معزين: «أسابيع طويلة مرّت.. فإلى متى يستمر هذا الحزن القاتم، والصمت الصارخ يا زياد.. دعهما.. دعهما يستريحان في جنتيهما.. هل تظن أنّهما يسعدان بك وأنتَ على هذه الحال من القهر والذبول والانهيار».

كان هذا كل ما قالته جارته سارة بعد تلكؤ طويل.. ومرحلة من الصمت أمام رهبة الموت.. وتجنباً لهتك جدار العزلة التي ارتضاها لنفسه.

صوت هادىء عذب يسري كالنغمات..

ينساب عطراً ساحر القسمات..

كشذا وردة تحلّق بوسامة الفراشات.

كتلة زهرية معجونة بالندى.. شواها حزن الحبيب بلهيبه أكثر من وقع الحدث المؤلم نفسه..

التفت إليها والحزن يغمر وجنتيه بدمع مثل جمر يسيل على برق..

أبعدها – كما ظنّ – برفق ونأى عنها..

لم يدرك أنّه بحركته التلقائية «العنيفة» هذه دفعها شديداً دون قصد..

جسدها الواهن الضعيف لم يقدر على الثبات أمام ردة فعله المفاجئة..

فوقعت أرضاً وسقطت كل العيون المزدحمة بالمكان عليها..

شكّل تصرفه نحوها جرحاً عميقاً نازفاً.. جرحاً من (جراحات الطريق) التي تحتاج إلى وقت طويل لتندمل..

لا يريد الإقرار بأنّ (الحيّ أولى من الميت) كما يقولون..

وهل علينا أنْ ندفن ذواتنا تحت التراب من أجل من نحب، إذا ما قدّر الله موتهم قبلنا..

هذا الزياد الذي يظهر للناس اليوم لم يعد زياداً الذي يعرفه أهل الحيِّ والأقارب والمحبون..

لم يعد بينهم من يتقبل تصرفاته الجافة القاسية الجارحة، فيما هم جميعاً يبدون له كل المودة والحب والمؤاساة..

فمهما كان الحزن عميقاً لا يوجد مبرر للإساءة إلى الآخرين..

يمكن أن يتفهم الآخرون صدمة الموت حال وقوعه، لكن لا يمكنهم الإذعان للموت وقبول استمرار صدمته ردحاً طويلاً من الزمن.. والبقاء في حالة حداد متواصل وخصام مزمن مرٍّ مع الجميع.

ومن يومها لم تعد تكلمُه، ولا حتى تسأل عنه..

٧ –
حب برئ.. لكن!

الجميع كان يعلم أنّ حباً بريئاً نقياً صافياً جمع بين قلبيهما منذ الطفولة والصغر..
لكنّ قلب سارة لم يقبل الإهانة..
لم تكن قادرة على تحملها.. فقد أهينت علانية.. وكثير من الناس كانوا مجتمعين في بيته، أغلبهم من الجيران والأصدقاء..
أبـوه وأمّه كانا يعتبران أهـل الحي أسرتهم الكبيرة.. وكان زيـاد نجم الأيام الخالية.. يرتـدي ثوب المرض ويساعد والديه ما أكسبه خـبرة طبية كبيرة وممارسة فريدة قلّ أن يكتسبهـا من لم يدخل كلية الطب.. وكان والداه يخصصان الكثير من وقتيهما من أجل أبناء الحي..
أمّه طبيبة أطفال وأبوه متخصص بالأمراض الصدرية.. يذهبان صباحاً إلى المستشفى، وعصـراً إلى عيادتهما المشتركة.. وفي المساء يتحـول بيتهما إلى عيادة مفتوحة لأهل الحي.. ليس لأنهم فقراء.. بل أصدقاء.
كانا حلمهما الكبير أنْ يصبح ابنهما الوحيد طبيباً مثلهما..
علّماه الكثير الكثير عن الطب..
رافقهما في أصعب الأوقات..
أعطيـاه من علم الطب ما لا تعطيه الجامعات لطلابها.. وذلك قبل أن يكمل الثانوية ويدخل كلية الطب ويتخرج ليحقق حلمه وحلمهما بالذهاب إلى أوروبا للتخصص.. وتحديداً فرنسا.
فرنسا..
لا ينسى زياد فرنسا أبداً..
البلد التي جمعت أبويه في إحدى جامعاتها.. وحدث ما حدث..
لطالمـا سافر معهما إلى فرنسا، البلد الذي شهد حبهما وزواجهما.. وبعد ذلك ولادة ابنهما الوحيد بعد عشر سنين من الزواج..
كان يتذكـر كلّ اللحظات هذه ويعيش فيها ولها.. لا يريد أن ينساها... أو أن يتخلى عنهـا.. لا يريد أن تتكون لديه ذكريات جديدة لأحداث جديدة.. يعيش مثل شيخ عاجز، تفتحت أمامه أبواب الذكريات ونوافذها..
لم يعد لديه غير الماضي..
ذكريـات نامت مع مـرور الأيام، لكنّها عـادت واستيقظت والتقـت في زاوية الحياة النهائيـة، حيث تستقـر الأحداث في الأعماق، ثم تطفو علـى السطح عند استقرار الموج وخفوت سطوة رياح الحياة..
عاش بينهما عشرين سنة كاملة..
احتفلا معه قبل أسابيع من وفاتهما بعيد ميلاده العشرين..
ثم سافرا إلى فرنسا – لوحدهما لأوّل مرة – للاحتفال بذكرى مرور ثلاثين عاماً على زواجهمـا.. كان لديه امتحانـات في الجامعة.. كان يستعـد للامتحانات الأخيرة في السنة الثانية بكلية الطب عندما وصلته أنباء من فرنسا..
«انقلبت سيارتهما على الطريق السريع.. وتوفيا ولاحقاً في المستشفى»..
علـم من أحـد الأطباء هناك أنّ أمه وهـي في لحظاتها الأخيرة كانـت تردد: «زياد.. زياد.. زياد».

٨ –
دعوة الحزن

عبثاً يحاول الإنسان أن يبدل رؤاه أو يصطنع غير ما يستقر في ذاته وهواه..
عبثاً يتمرد على الواقع ويقاوم العاصفة..
ومع ذلك فـإنّ طبيعة الكون تدفع المرء إلى التحدي.. وعـدم الاستسلام بسهولة..
هذا في الحالات المعتادة.. لكنّ زياداً لم يكن واقعه مشابهاً..
صفـات التحدي في النفس البشرية لم تعد مألوفـة عنده.. فقَدَ كلّ ما كان متعملقاً في قلبه..
جعل لبّه خزانة للحزن وأغلق بابها، حقيبة الذكريات لم تعد تفارق ظهره..
استجاب لدعوة الحزن دون مناقشـة.. وتناسى دعوات الفرح التي يبسطها له عمره الوردي ومستقبله الواسع الرحب..
سقط في واد سحيق على طريق الآلام..
ينظر إلى اللاشيء..
يسكن الفراغات، يعيشها..
يتماهى مع سقم الجراح ونزفها..
يتقلـب على فراش الشـوك البري المسنن.. لا يعبأ بالـدم المسكوب.. ينادي الموت فلا يجده.
فكان حاله مثل قول الشاعر المهلبي:

ألا موت يباع فاشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي يخلصني من الموت الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أنني مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

٩ –
العميدة ميشلين

لا يحفـل بـكل الأشياء الجميلة من حولـه والتي كانت ترسم لـه مستقبلاً ورديـاً..
تخلى عن الدراسة وعن كثير من الأمور التي كانت تربطه بالحياة..
الدكتـورة دينا.. الطالبة المتفوقة في الجامعة التي كان زياد يدرس فيها، حاولت مراراً أنْ تعيده إلى مقاعد الدراسة حيث يجب أن يكون..
لكنّها عجزت..
تكلمت مع عميدة الكلية الدكتورة ميشلين.. شرحت لها الأمر..
ذهبت العميدة بنفسها إلى بيت زياد..
لكنّه لم يفتح لها الباب.
انتظرت طويلاً.. فهي تعرف زياداً، كان طالباً عندها في أحد الفصول.. زارته مع عدد من المدرسين الأطباء إثر الحادث للتعزية..
قابلهم بفتور..
لكنه اليوم لا يريد أن يفتح لها الباب.. فعادت حزينة..
كليـة الطب حلم جميل يراود كثيراً من الشبـاب.. يتدافعون للفوز بمقعد فيها.. ولا يصل الواحد منهم إلى تحقيق هذا الهدف بسهولة..
لم يقـرر التخلـي عن الجامعة فقـط.. بل عن كل شـيء.. حتى أنّـه لم يسأل عن ممتلكات أبيه.. وتحديداً عن إيراد عمارة في شارع راقٍ في المدينة..
طلـب من وكيل العمارة أنْ يضع نصف الإيجـار في حسابه في المصرف.. وأنْ ينفق النصف الآخر على المحتاجين إكراماً لأبيه وأمه.. دون أن يدرك أنّ وكيل العمارة لا يفعل ذلك كما يجب..
صحيـح أنّه كان يضع جزءاً من المـال في المصرف في حساب زياد لكنّ هذا الجزء لا يصـل إلى نصف إيـراد العمارة.. ولا حتى ربعها.. أمّا الجـزء الأكبر فكان يضعه في جيبه.. دون أن يخصص نصف الإيراد للمحتاجين كما طلب منه زياد.
وعلـى أي حال.. لم يكن زياد يهتـم بذلك.. تكفيه بضعـة دولارات، ينفقها على شؤونـه الضرورية.. حتى أنه لم يشتر ثوباً واحداً منذ وفاة والديه قبل سنوات.. ولم يضف قطعة أثاث جديدة إلى أثاث المنزل..
كل شـيء على حاله.. ربما حرارة الهاتف هي الشيء الوحيد الذي تغير في المنزل.. فبعـد أن كان رنين الهاتـف لا ينقطع.. فصل زياد الهاتف عـن حرارته.. وبعد مدة قطعت الحرارة من مصدرها بسبب عدم دفع الفاتورة المتوجبة.
لم يكن زياد مهتماً بكل ذلك بعد أن فقد أعزّ شيء في حياته..
بدا وكأنّه يريد أن يعاقب نفسه..
سمعه البعض يردد:
«لـو كنت معهمـا في السيـارة لذهبت إلى حيث همـا الآن.. لا عيشـ لي بعدهما أبداً..».

١٠ –
عودة سارة

بعـد أسابيع على ذلك الموقف.. يوم دفعها بيـده وانصرف عنها.. عادت سارة التي تصغره بسنة أو سنتين تطرق باب بيته.

البـاب موصد مثل باب سجن حديدي طال عليه العهـد، فترك الزمان على أطرافه آثار الهجر والنسيان..

كأنّ الحُـبّ عندمـا نقرر كيف يكـون؛ إمّا ناراً تأتي على الأخضـر واليابس أو دخاناً يتبخر دونما عودة.. ألا ينفع الماء ينساب سلسبيلاً عندما يلامس الحياة برقة؟

شقّة زياد في الطابق الرابع..

العمـارة كبيرة وواسعـة، وفي الدور الواحد عـدة شقق متباعـدة.. يربطها ممر واسع عريض..

وقفت صامتة تنتظر..

طرقت الباب مرة ثانية طرقاً أشدّ من الطرقات الأولى..

لكنّ الباب ظل صامتاً جامداً لا يتحرك..

لم يكن هذا الباب ليغلق في وجهها يوماً من الأيام..

كانت العيون تَبْرُق عندما تراها والشفاه تنفرج على ابتسامات عريضات..

هـذا الباب الذي لم يفتح اليوم؛ كانت سيدة المنزل تستقبلها به بكل حب وعطف وحنان..

تدرك بضمير الأم إحساس ابنها..

تستشعر ذلك الودُّ المغزول في العيون.. الممتزج بالروح قبل القلب.. معاً..

أهلها وأهله من أعزّ الأصدقاء، عهد طويل من الجيرة والمحبة، يتزاورون يوماً بعد يوم.. لسبب أو دون سبب.. قبل توقف الزمان عند لحظات الفراق.

انتظرت..

وجهها في اتجاه الباب مباشرة.. تكاد تلتصق به وتمتصه إليها..

فجأة.. حركة وظلال من خلال عين الباب..

هذه العين السحرية التي تسمح للناظر من خلالها أنْ يرى الناس دون أن يَرَوْهُ..

هذه العين التي تكشف لسيدها الكثير.. وتخفي عن غيره الكثير..

دقّ قلبها.. هذا القلب الصغير الهامس.. الساعي إلى الوداعة برفق وأناة..

ازدادت النبضات والدقات هلعاً..

ظنّت أنّه لو مرّ أحد في المكان لسمع صوت قلبها الصغير..

هو على مقربة منها ويسمعها..

سـرى في لبِّها شعاع مـن طمأنينة انطلق من الأعماق.. شعـور محب غفر للحبيب زلاته..

همست بصوت هادئ حزين خافت:

«سامحتـك يا زيـاد على ما فعلت.. كلِّمني قليلاً.. لا يجـوز أن تبقى هكذا.. شهور مرّت..

أنسيت كل شيء بيننا؟

سأذهب الآن وانتظرك في الحديقة نفسها التي كنا نلهو فيها في أيام الطفولة..

سأذهب إلى هناك مباشرة..

فلا تتأخر عليّ..

الجو بارد وأخشى أنْ أصاب بالبرد والزكام».

صوتها مثل صوت حمامة صغيرة.. تتحرق شوقاً لحضن أمِّها التي غدت منذ الصباح تبحث عن طعام تسدُّ به جوعها الدائم الذي لا يدرك شبعاً ولا ارتواء، مع ندرة الحَبِّ وقسوة الطبيعة، وانقطاع المطر.. وتيبس الندى على الغصون.

خرجت سارة من العمارة بعد أن أودعت قلبها على عتبة الباب الموصد بإحكام..

موصد على الحياة والأمل..

لا شيء يبدو قادراً على أنّ يثنيه عن منفاه الاختياري..

منفى لا يعرف زمناً يقف عنده.. ولا يمكن لأحد اقتحامه.. فهو القاضي وهو الحاكم وهو السيّاف والمحكوم..

ما أجمل وجه القمر في صفائه وسكونه.. وجه ساكن صامت منير.. يسكن السماء، لكنه يلقي بجماله على الأرض وساكنيها..

تذكرت قول نزار في (خبز وحشيش وقمر):

عندما يولدُ في الشرق القمرْ..

فالسطوحُ البيضُ تغفو

تحت أكداس الزَهَرْ..

يترك الناسُ الحوانيت ويمضون زُمَرْ

لملاقاة القَمَرْ..

يحملون الخبزَ.. والحاكي.. إلى رأس الجبالْ

ومعدات الخدَرْ..

ويبيعونَ..ويشرونَ.. خيالْ

وصُوَرْ..

ويموتونَ إذا عاش القمر..

١١ –

نسيمات الشتاء الفاتنة

.. ومضت سارة تنتظر..

لكنْ.. دون أمل ولا رجاء..

في انتظارها تقلب الجو.. ثم صحا على نسيمات شتاء «ربيعية»..

نسيمات فاتنة لا تأتي إلا قليل.. من حين إلى حين بعيد..

الورود من حولها تستذكر ماضي الحياة..

«هنا لعبنا.. هنا أكلنا وشربنا.. هنا جرحت يديّ عندما وقعت على الأرض، فساعدني زياد وأحضر منديلاً يمسح نقاط الدم.. كان يمسح الدم بيد.. ويغزل بالأمل فرح المستقبل.. باليد الأخرى».

«هنا زرعنا وردة..

وهنا افترشنا التربة..

وهنا ضحكنا كثيراً عندما كبرنا على لهو طفولتنا..

يا لطفولتنا..

وهل تنمو الورود على الأحلام..»..

«على غصن من أغصان تلك الشجرة جلسنا يوماً.. انكسر الغصن وهوى فهوينا معه.. كادت ضلوعنا تنكسر كما انكسر الغصن.. ضحكنا طويلاً من طيشنا».

«هناك..

آه.. ما زلت أذكر..

كم رششنا الماء على بعضنا بعضاً..

وفي مرة وقعت على التراب الممزوج بالماء.. فعدت إلى البيت وثوبي بلون جديد..

وما زلت أسمع صياح أمي واستنكارها حتى اليوم».

«وهذه الأرجوحة..

لها في ذاكرتي حكايات وحكايات..

هو يتأرجح..

أنا أتأرجح..

سباق على التأرجح مستمر..

وعندما كنا نأتي ونجد من سبقنا إليها.. نحزن..

اليوم هي تنتظر بشغف من تؤرجحه.. ومن يأتي ليتأرجح في مثل هذا اليوم البارد؟!».

في المساء ذهبت سارة إلى الطبيب، مرض شديد أصابها بعد انتظارها الطويل تحت المطر، كانت تحلم بقدوم زياد.. لكنْ زياداً لم يأتِ ولم يتحققِ الأمل..

الرياح والأمطار أكثر رأفة ممّا لاقته من زياد..

الأمطار تهدأ من حين لآخر..

الرياح تمرُّ قربها.. تلامس وجهها بحنان ثم تمضي.. تعبث بشعرها المبلل بالماء.. تتركه يمرح بعد أن تداعبه بفرح..

١٢ –
إصرار سارة

غابت سارة أياماً في بيتها لا تغادر سريرها حتى دنا شفاؤها ولم يكتمل..
أوّل خروج لها كان إلى بيت زياد، وهي لا تزال في وعكتها..
بيت زياد يقع في العمارة المقابلة للعمارة التي تقطن فيها..
تطلُّ شرفة منزلها على نافذة صالة منزله.. التي باتت مغلقة على الدوام..
لا تضاء أنوارها منذ تلك الحادثة الحزينة..
هذه النافذة لطالما شهدت زقزقة العصافير.. وتنسيم الأزاهير..
والشرفات لا تطل فقط على الشوارع..
بل تطل على حكايات الناس، تخطُّ في كتاب الأيام حروفاً وجملاً..
أصيص النبتة الخضراء خفّت عيدانها.. واصفرّت أوراقها..
ثمّ جفّت وتفتتت وانتثرت.. وماء الحياة فيها تقرّحت عروقها.. وتشققت.
وأنهـار الأحلام تبـدد هديرها.. وكلُّ الرؤى على الأحلام مـرّت وانقضت.. خفُتَ أوراها كما يخفت شعاع العمر في شمعة الحياة..
ومـا أصعب الحياة من غير أحـلام ترتسم على ضفتي نهر.. وما أعتم الليل من دون قمر.
كانت تحلم أن تقول كما قيل لنزار:
هذا أنتَ، صاحبَ الصغَرْ؟
ألا تزالُ مثلما كنتَ.. غلاماً ذا خَطَرْ؟
تجعلني.. على الثرى.. لُعْباً.. وتَقْطيعَ شَعَرْ..
فإنْ نهضْنَا.. كانَ في وُجُوهنا ألفُ أثَرْ
زمانَ طَرّزْنَا الرُبى لَثْماً وألعاباً أُخَرْ
مُخَوّضَيْن في الندى..
مُغَلْغَلَيْن في الشجَرْ..
أيّ صبيٍّ كنتَ.. يا أَحَبّ طفلٍ في العُمُرْ؟

وتحلم سارة أنْ يكون جوابه:

الله ما أكْرَمَها تلك الذكَرْ
أيّامَ كنّا كالعصافير غناءً وسَمَرْ
نسابقُ الفراشةَ البيضاءَ
ثمّ ننتصرْ
وندفَعُ القواربَ الزرقاءَ في عَرْضِ النَهَرْ ..
وأخطُفُ القُبْلَةَ من ثغرٍ بريءٍ.. مُخْتَصَرْ ..
ونكسِرُ النُجُومَ.. ذَرّاتٍ ونُحصي ما انكسَرْ ..
فيستحيلُ حولَنا الغروبُ.. شَلالَ صُوَرْ
حكايةٌ نحنُ.. فعندَ كلِّ وردةٍ خَبَرْ !..
إنْ مرةً.. سُئلتِ قُولي:
نحنُ دَوّرنَا القَمَرْ ..

١٣ –
قريب سارة

زيـاد اليوم ينام علـى بساط في غرفة نـوم أمّه وأبيه التي تقع مـن الجهة الخلفية من المنزل..

يعشق هذا البساط القديم الذي يحمل ذكريات قديمة..

في خيوطه تنتظم حكايات الماضي التي تحتسي معالم الحب القديم..

لا يفارق جوار سريرهما إلا لحاجة..

يتأمّل الغرفة وما فيها من أشياء ولا أشياء..

يتفحّص الجُدُرَ التي عزف أبوه عليها صنوف الرسم.. بأنغام الريشات الملونات.

وفي جدار – إلى يمينه – وجه طفل سعيد..

وفي جانـب علوي من الجدار نفسـه صورة كبيرة لمجموعة أطفـال يلتفون حول أبيه وأمّـه، يلوحون بأيديهم «فرحين» في دولة بعيـدة، بثيابهم المقطعة التي لا تتناسق مع البسمات التي تبزغ من عيونهم قبل شفاهم وتشير إلى فرح ما..

زارا تلك الدول ضمن حملة طبية لعلاج حالات لا تجد من يعالجها..

كان زياد برفقتهما كالعادة..

في هذه الغرفة أسرار الحياة.. ثلاثون عاماً في هذه الغرفة..

يا لها من فترة طويلة في حساب الزمن.. لكنها قصيرة في حساب العمر.

راحت سارة تطرق الباب بيديها الواهنتين..

تطرق بشوق كمن يبحث عن ماء في صحراء.. عن شمس في سماء ليل.. عن وردة في صخر..

تريده أنْ يتفهم آدميتها.. أن يتذكر أنهما «دوّرا القمر».

أنْ يُدرك أنّها حزينة مثله.. أن يستوعب حزنها وألمها من أجله..

فهي لم تعرف الفرح منذ وفاتهما.. عيناها الدامعتان تشهدان على ذلك..

أبـواه كانـا أبويها.. كانا مثـل نجمتين تضيئـان في نفسها أحلام الحيـاة.. ومصابيح الأمل..

مثل ريحانتين تتنسم عبيرهما.. مثل ماء عذب يمر على الجراح فيطببها..

لكنّ الحياة لا تعطي حتى تأخذ.. تعبر طريقها دون اكتراث بأحد..

تصيد بسهام الموت من تشاء وقتما تشاء..

قالت بصوت مرتجف تغلّفه بحة البرد والزكام:

«افتح يا زياد افتح.. يكفي..».

رأت خياله يتحرك من خلف عين الباب..

قالت بصوت منخفض كيلا يسمعها الجيران:

«اسمعني يا زياد جيداً.. لي قريب يريد أن يتزوجني، يلحّ على أبي كي يزوجني إيّاه.. وأنا أرفض باستمرار.. انتظرتك في الحديقة قبل أيام لأخبرك بذلك، لكنك تركتني رغـم البرد الشديد حتى أصبت بالمرض وكدت أموت، مكثت بالسرير طوال الأيام الماضيـة.. سأذهـب الآن إلى الحديقة نفسها.. لا يهمني بـرد ولا زمهرير.. سأنتظرك اليوم أيضاً حتى ولو مرضت ودخلت المستشفى أو حتى القبر.. عليك أنْ تعلم أمراً

واحـداً: إنْ لم تـأتِ هذه المرة سأقبل بقريبي عريسـاً لي.. لأنّ عدم حضورك يعني أنّك قطعت آخر أملٍ لي معك.. لا تتأخر.. سأنتظرك حتى غياب الشمس.. وبعدها سأنفذ – مرغمة – ما أخبرتك به»..

لم تكن سارة بهذا تهدد زياداً.. فليس هذا هو أسلوب المحبين..

لكنّ والد سارة يريد أن يفرح بابنته قبل أن يموت هو أيضاً..

يريد أن يرى أحفاده منها..

أمّا زياد فلم يعد زياداً الذي تعرفه..

وهل على الإنسان أنْ يربط مصيره إلى ما لا نهاية بشخص قرّر من طرف واحد وضع إطار محدد لحياته، دون أي اعتبار للآخرين؟!

وفي المقابل؛ فإنّ زياداً أنهى كل عقد له مع الحياة..

لا يريد حتى أن يتنشق عبير الأرض.. ولا أن يفتح نوافذ البيت على الضوء.

ولو كان بمقـدوره.. لسدّ أنفه قبل أذنيه، وكمّم فمه وكبل لسانه، وغطى بصيرته قبل بصره.. وقطع كل حبل يصله بالدنيا..

وجلس منتظراً الموت الذي قالوا فيه:

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كل خليل

أراك مصيباً بالذين أودّهم كأنك تنحو نحوهم بدليل

١٤ –
الوسادات الخاليات

بعد أيام..

ارتفعت الزغاريد في بيت سارة.. وانسابت الزغاريد تملأ تفاصيل الشارع..

الناس هنا يحبون الفرح.. يتشاركونه كما يتشاركون الهواء.. لكنّهم لم يكونوا سعداء هذه المرة.. فقصة زياد مع سارة لا تخفى على أحد.. والكل متعاطف مع زياد.. فهو لا ينقصه حزن جديد..

وصل صوت الزغاريد إلى أذنيّ زياد..

دفنَ رأسه بين وسادات سرير والديه الفارغات.. وضع الوسادات على البساط يتنشق عبير ما فيها من أثر.. بللها بدموع سخيّة لاهبة..

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تبللت الوسادات بدموع زياد..

الوسادات لونها بات شاحباً من كثرة دموع الليالي الغابرة..

لم يكن يغسلها حتى لا يذهب أثر والديه منها..

كان يشم رائحة والديه متشربة في كل تفاصيل المنزل..

فستان والدته ليلة عرسها ما زال في خزانتها الخاصة..

ارتداه في ليلة من ليالي الحزن.. كان جسمه الناحل الدّقيقُ المَهْزول؛ أرقُّ من جسم أمّه في عرسها.. كان حاله كقول بشار بن برد:

إنّ في بُرْدَيّ جِسماً ناحلاً لوْ تَوَكّأْتِ عليه لانْهَدَمْ

وقف أمام المرآة يتأمل الفستان الأبيض الجميل.. المرصّع بأنواع من الزخارف والأشكال الوردية والمذهبة والبراقة.. التي ما زالت تلمع رغم مرور أكثر من ثلاثة عقود على يوم العرس..

كان المشهد غريباً.. رجل يرتدي فستان عرس أبيض.. كان يحلم بأمه.. في كل أنحاء البيت ذكريات وذكريات..

كل شيء يوشي بالحياة بين أحضان أبويه.. لم يفرط حتى بعلبة البودرة التي تحتفظ بها أمه هدية أمها ليلة زواجها..

«عجيب أيّها الزمن.. قبلتُ قضاءك وحكمك.. لكنّي لا أستطع الخروج مما أنا فيه.. وسأبقى في ماضيّ أحيا.. فلا معنى لمستقبل عندي دون أبي وأمي»..

لم تعد الحياة تستحق أن يحيا فيها.. ترى من أي نسيج صنعت مشاعره.. وهل يصل الإنسان إلى حيث هو، فيفني نفسه فيمن يحب.. كيف يمكنه التخلي عن كل الأشياء الجميلة في الكون، وينطلق إلى عالم الوحدة والتماهي، حتى الانصهار الكامل، والاكتفاء بتعذيب النفس في براري الوله الجارف بلا اعتبار.

نفس الإنسان لا تتقبل الصدمات بسهولة.. لكنها عادة ما تنحني أمامها، وتستسلم لقدرها..

هو لا يعترض على القدر.. بل راض به أشد الرضى.. وهذا هو الغريب.. فقد اعتكف مع الحزن لا يفارقه، وعانق أشباح الذكرى لا يغادرها.. حتى توارى خلف حجاب من خيال منتمٍ إلى واقع، في عباءة ذكريات.

١٥ –
وجه القمر

صورة والديه قرب السرير وهما يضحكان في آخر ذكرى زواج لهما؛ في حديقة مطعم باريسيّ شهير، حيث اعتادا أنْ يقضيا ذلك اليوم من كل عام، ما تزال في مكانها.
الصورةً هذه مثل قمر لا يترك سماءه، يسبح في فضاء الكون يلهو ويلعب.. لكنّ وجه القمر غاب عنه قبل زمن..
هـل نسـيَ القمرُ وجهه الحقيقي بوجوهـه المتعددة المتكررة في روعتهـا من شهر إلى شهر.. ومن يوم إلى يوم؟!
زيـاد يذكر جيـداً تلك الصورة التي التقطهـا بنفسه في ليلة مقمـرة.. ومن كاميرته الخاصة..
يقال أحياناً: «مع أنك تملك ذكريات كثيرة؛ لكنك لا تستطيع أن تختار ما تتذكره.. فالذكريات هي التي تفرض نفسها وقتما تشاء».
أمـا زياد فيقـول: «المشكلة أني مكبل بـلا مساحات.. سائر بـلا طرقات.. طائر بلا مسافـات.. أقطع آلاف الأميـال فلا أتجاوز حدوداً.. ولا أعبر طريقـاً.. وأعود كسيراً مثل طير مذبوح.. كلاجيء بلا وطن أسكنه.. أو فرح يسكنني.. فأذبل».
«الذكرى السعيدة عندما تعجن مع آلام صاحبها، وتخبز في أفران قلبه المستعر شوقاً إلى الماضي.. تنتج خبزاً يفيض من حزن أحرقه لهب النزع الأخير».
هـذه الصـورة واحدة من صـور نادرة لا يبدو فيهـا معهما.. كانـا حريصين على أن يرافقهما إلى كل مـكان يذهبان إليه.. كان يوقف المارة ويستأذنهم بتصويره معهما.. يحب ذلك.. يريد أن يوقف الزمن عندهما..

هذا الحب «البنوي» المسكون بالتشكُّل الوارف المظلِّل لكل الأحاسيس..
حب يستعصي على الفراق.. حب يغلب الحياة.. لكنّه لا يقوى على مواجهة الموت والانتصار عليه.
وعندما يشتعل الحب تذوي المسافات.. وتعصف بالنفس نيران شوق تفيض بمشاعر لا حد لها..
ولعل هذا هو السبب الذي ولّد في نفسه إحساساً بالذنب لا ينقطع..
ربما لو كان معهما لما انقلبت السيارة التي كانا يستقلانها..
ربما لو قادها بنفسه لما انحرفت عن الطريق وسقطت في الوادي..
كان يعرف أنّ بصر والده في الفترة الأخيرة أصبح ضعيفاً.. وخصوصاً في عتمة ليل لم يزره قمر.. وعظمه وهن، ولم يعد قوياً مثل السابق.
هذه الصورة تبكيه كلما نظر إليها.. تحزنه.. تصيبه بالأسى..
هو يعلم أنّ في الخزانة المجاورة كميةً كبيرة من الألبومات..
هـل يصدق أحد أنّه منذ الحادثـة قبل أسابيع طويلة لم يفتح باب هذه الخزانة ليلقي ولو نظرة واحدة على الصور القديمة التي تملأ مساحة واسعة منه.
«لا بأسـ.. لا يهم.. فكل الصور حية في ذاكرتـي.. باتت اليوم تبدو وكأنها حدثت يوم أمس..».
الذاكرة تنتعش أكثر ما تنتعش عند توقف الأحداث وتجمُّد عقارب ساعة الحائط في اتجاه ما.. لا يوجد للذاكرة تاريخ.. ولا زمن.. ولا دقّات..
لـولا صوت إطارات السيارات التي تزعق علـى الطريق؛ لم يميّز بين ساعة من ليل أو ساعـة من ضحـى، فالستائر السميكة تحجب الواقع.. لكنهـا لا تمنع الذاكرة من التسلل والتمدد إلى حيثما تشاء.

١٦ –
وكيل العمارة

من وقت إلى آخر يأتي وكيل العمارة ليسلمه بعض المال الذي يحتاجه..
يمشي متثاقلاً يجرُّ قدميه ببطء كأنه يسير نحو المقصلة..
في كل مـرة كان يضع المـال في مغلف لونه يختلف عن المرة السابقة، كأنّه لا يريد أن يعتاد زياد على لون واحد.. كما أنّ حجم المغلف لم يكن واحداً في كل مرة..
كان يسير برشاقة حمامة.. مع أنّه ليس خفيفاً حتى ولا مثل ثور.. فهو صاحب هيئة ضخمـة مثل جبل، وكتفين عريضين مثل لوح خشـب مستو.. ووجهه طويل بدت عليه خطـوط الزمن.. وتحت أنفه شارب رفيع يحتفظ بـه منذ شبابه.. يذكره ببعض أبطال أفلام الأبيض والأسود.. ذلك الزمن الجميل الذي مضى وانتهى.
يدخل العمارة دون أن يلقي التحية على حارسها..
وحارس العمارة رجل مثقف.. يقرأ كثيراً كي يجد حديثاً لائقاً يتحاور فيه من سكان العمارة.. معظم الصحف التي تصل فجراً إلى المشتركين فيها من سكان العمارة يقرأ تفاصيلها قبل أن يصعد بها إليهم صباح كل يوم.. ثم يلفتهم إلى الأخبار المهمة لكي يحرصوا على قراءتها..
يعلم أنّ القراءة كنز من كنوز الدنيا..
وأكـثر ما يأسف عليه أنه لم يتمكن من متابعة الدراسة بسبب موت أبيه وهو صغير لم يتجـاوز الثالثـة عشرة مـن عمره.. واضطـراره للعمل حتى يساعـد أمّه وإخوته الصغار..
تعاطف كثيراً مع زياد..
فقد اختبر من قبله مشاعر الموت والفقد.. وأحسّ بكل نار البُعد.. وهو يعلم أنّ آلام زيـاد أكبر.. لكنّ الألم هو الألم، سواء أكان صغيراً أم كبيراً.. وعلى من يصادفه أن يتقبّله ولا يجعله لصيقاً به على مدى الحياة..
اعتـاد الحارس على فظاظة وكيـل العمارة التي ورثها زياد.. لم يكن يهتم بالأمر، بل يبادله النظرات نفسها.
يدخل المصعد مباشرة، يطلب الطابق الرابع.. يمشي بحذائه العريض، يضرب الأرض به كجندي محترف في يوم استعراض عسكري..
وعندمـا يصـل إلى باب المنزل يقف للحظـات، ثم يضع المغلف علـى بساط صغير أمـام الباب الموصد بوجهه منذ فـترة طويلة.. ويمضي بعـد أن يطرقه طرقات خفيفة متتالية..
في هذه اللحظات يبدو وكيل العمارة وكأنه يريد أن يقفز بسرعة بعيداً.. وتختفي عنه تماماً رشاقة الحمامة التي بدت عليه..
كأنه يؤدي وظيفة مملة يريد أن ينتهي منها ثم يعود إلى أعماله الأخرى.
زياد لا يريد أن يلتقي بأحد من الناس..
وهذا الأمر لم يكن يزعج وكيل العمارة على الإطلاق.. بل يستهويه ويروقه كثيراً.. فـلا أحد يحاسبـه ولا أحد يسأله ما قبض وما أنفـق.. وإلى أين يذهب نصف إيراد العمارة المخصص للخير؟.
شيء رائع حقاً أن يكون أصحاب الأملاك على هذه الشاكلة..

إنّه يريح عامله إلى أبعد حدود.. فلا يوجد من يحاسب ولا من يسأل..

وكيـل العمارة لم يكـن أصلاً مخلصاً لوالد زياد الدكتور رمـزي، فقد كان الدكتور رمـزي وزوجته الدكتورة صفاء مشغولَين دائمـاً بالمرضى، ما بين المستشفى والعيادة معظم ساعات النهار.. ثم تطبيب أبناء الحي في فترة المساء.. وقد منحاه كامل الحرية والثقة للتصرف بالعمارة وبجزء من إيرادها؛ لتغطية مصاريفها المعتادة.. وكان الدكتور رمزي يقابله من حين إلى آخر للاطلاع السريع على الحسابات..

أمّا اليوم فلا حسيب ولا رقيب. ما منحه كل المساحة الممكنة ليفعل ما يريد. وبطبيعة الحال لم يكن أهلاً للثقة التي نالها من والديّ زياد، أمّا زياد فقد كان له شأن آخر.. كان وكيل العمارة مراوغاً مع والديّ زياد.. اليوم هو حرٌ من أساليب المراوغة.. التي هـو بالطبع ماهر جداً بها.. وقـد اكتسبته السنين والتجربة حنكة واسعة.. غير أنه لم يعد يلجأ إلى حنكته مع زياد.. فهو لا يعبأ بكل ما حوله..

وفي يـوم تمكن بعد إلحـاح من مقابلة زياد، أقنعه بتوقيع توكيـل يمنحه حقاً بالتصرف الشامـل بالعمارة الوحيدة التي يملكها زياد.. باعتبار أنّ هناك إجراءات قانونية كثيرة يجـب القيام بها، ومعاملات عديدة تخص العمارة كان يقوم ببعضها الدكتور رمزي شخصياً.. وزياد لا يقوم بها الآن..

ومنـذ ذلـك اليوم.. اختفى وكيل العمـارة.. وقطع عن زياد الأمـوال الزهيدة التي كانـت يحملهـا إليه من حين إلى آخـر. لم يعد زياد يملك المال الـكافي ليدفع حتى تكاليف الطعام البسيط الذي يحمله إليه الحارس إضافة إلى حاجاته الضرورية..

ولـولا بعض المال الذي تبقى مما كان يأخذه أحياناً مـن إيراد العمارة ويوفره زياد في خزانته لما استطاع تأمين الطعام الذي يحتاجه مدة قصيرة من الزمن..

١٧ –
قرار لا يتغير

مـرت الأيام ثقيلة.. مع ما استجد من صعاب.. ومع ذلـك لم يتخلّ زياد عن قراره بالبقاء سجيناً في محبسه الاختياري داخل جدران البيت..

وتحديداً في غرفة نوم والديه.. التي لم يكن يفارقها كثيراً..

أهـل الحي علموا بما اقترفه وكيل العمارة من جرم لا يحاسب عليه القانون.. لكنّهم لم يقدروا على شيء.. فالأمر قانوني، ووكيل العمارة في الأصل محام.. وصاغ نص التوكيل بشكل دقيق جداً..

ومـن أكثر دقة على الصياغة القانونية مـن المحامين... كما أن زياد لم يكن مستعداً للقيام بأي ردة فعل ولم يعد يقبل استقبال أيّ أحد من الناس..

وكيـل العمارة باع بالتوكيل الشامل الـذي لديه العمارة نيابة عن صاحبها لنفسه.. وهذا حقٌ منصوص عليه في الوكالة، لم يلحظه زياد؛ لأنّه أصلاً لم يقرأ نص التوكيل بدقّة.. وحتى لو أراد ذلك لم يكن ليفهم ما في نص الوكالة من بنود معقدة، صيغت على يد مراوغ محترف.

لكنّ زياداً لم يعبأ بكل ذلك.. بل على العكس.. شعر بأنّ العمارة همٌ وزال..

فماذا يريد من هذه العمارة؟

لم يكن يستفيد من إيرادها الكبير الشيء الوفير.. كما أنّه لا يريد أن يشغله أمر عن العيش في ذكرى والديه..

ببساطة مرّ الأمر وكأنّه لم يكن..

صار المال القليل لدى زياد ينقص يوماً بعد يوم..

الناس من حوله يدركون ذلك..

العم خليل صاحب الكشك القريب من العمارة حيث يسكن زياد لم يرد أن يرسل إلى زيـاد أية مساعـدة.. وقد تكلّم كثيراً مع أهل الحي في هـذا الأمر.. وكان الجميع موافقاً على ذلك.. ومقتنعاً بضرورة أن يخرج زياد من المحنة التي هو فيها باختياره.. وأنّ لديـه اليوم فرصة لذلك.. طلبوا مـن حارس العمارة أن يتوقف تماماً عن تزويده بالطعام.

قالـوا: «لو ساعدنا زياداً وأرسلنا إليه مـا يحتاجه سيبقى في بيته كما قرر، ولن يخرج منه أبداً.. بل علينا أن نمنع عنه أية مساعدة حتى يضطر إلى الخروج».

١٨ –
اليد المجهولة

مضت أيّام وأيام.. وزياد لا يخرج من بيته..

أهل الحي تساءلوا كيف يمكن لزياد أن يصمد على هذه الحال مدة طويلة!

لم يلحظ أحد أنّ هناك يداً تحمل إليه من حين إلى حين قليلاً من الطعام تلقيه أمام باب بيته ثم تطرق الباب وترحل مسرعة..

لم يكن زياد يعرف من يفعل ذلك.

الأمر يثير الفضول فعلاً، «من ذا الذي يزودني بالطعام من حين إلى آخر!»

هو يعلم أن الحارس لم يعد يأتي منذ أن أنفق كل ما يملكه من مال.. فمدخراته القليلة ذابت مع الأيام.. أمّا الرصيد البنكي فقد سحبه وكيل العمارة بالتوكيل الذي معه..

لم يستطع زياد اكتشاف سرّ اليد المجهولة.. ولم يكن هنالك وقت محدد يمكن من خلاله الانتظار ليكشف الأمر بنفسه.. وفي النهاية فكر بأنْ ينقل طاولة إلى قرب الباب، ويضع فوقها كرسياً يجلس عليه لينظر من خلال عين الباب، منتظراً مهما طالت فترة الانتظار..

مضت أيّام وزياد يجلس هذه الجلسة لا يفارق عين الباب..

«ما أجمل هذا الصبي الصغير..

ترى ابن من هو؟

آه هذه أمه.. إنها جارتنا ثريا..

آه.. مضت فترة طويلة منذ رأيتها آخر مرة..

يبدو أنّه ابن جديد لها لا أعرفه.. عمره سنة تقريباً.. يبدو لطيفاً..

ما أجمل الأطفال».

يُفتح باب المصعد ويخرج منه رجل شديد بياض الشعر.. إنّه الدكتور رياض الأستاذ الجامعي.. «لقد شاب معظم شعر رأسه... كم هو جميل بهذه الشعرات البيض.. أتذكر ابنه عصام.. كان صديقاً لي وقد تخرج من كلية الحقوق أخيراً وأصبح محامياً..

حاول التحدث إلي مرات ومرات ورفضت ذلك..

كان يريد أن يخفف عنّي لوعة الألم وشدة الواقعة.. لم يكن يعنيني ذلك كله..

أبي أكبر من أبيه.. أمي لم تنجبني إلا بعد سنوات طويلة من الزواج.. وقدّر الله أن آتي إلى الدنيا ثم يتركانني وأنا في زهرة الشباب.. إنّه لأمر صعب حقاً..

ربنا يهنىء عصاماً بأبيه وأمه..

أذكر أنّ لديه ثلاثة أشقاء وأخت واحدة.. أظن اسمها دلال. يااه.. كم مضى من أيام؟!».

يقوم زياد إلى الحمام.. وبعدها يذهب إلى غرفة والديه..

إنّه يشعر بإرهاق الشديد جراء الجلوس الطويل والنظر من خلال عين الباب ومراقبة الجيران والتفكير المزعج..

يلقي بجسده المنهك على البساط قرب السرير ليرتاح بعض الوقت...

يسمع طرقاً خفيفاً على الباب..

ينهض بسرعة.. يلحق الصوت..

يفتح الباب.. كيس مليء بالطعام.. مستند إلى الحائط اللصيق بالباب.

ولا أحد هنا..

يخرج رأسه قليلا ليتفحص الردهة.. لا يرى أحداً..

راوده إحساس غريب لم يشعر به منذ زمن بعيد..

تنشق عطراً أنثوياً ملأ المكان..

هواء منعش تخلل لحيته الطويلة الخفيفة الشعر..

«يا لهذا الشعور الساحر.. لقد نسيته منذ فترة طويلة.. ترى من اقتحم علي خلوتي.. وبدد وحدتي.. وجعلني افتح الباب وأخرج رأسي للمرة الأولى منذ شهور؟».

١٩ –
نافذة الدنيا

قفـز مـن أمام الباب بعد أن تركه مفتوحاً دون أن ينتبه إلى ذلك.. أسرع نحو النافذة المطلّـة على مدخل العمارة مباشرة.. هذه النافـذة مغلقة منذ وفاة والديه.. لم تفتح ولا مرة واحدة..

حاول استراق النظر من خلال فتحاتها الصغيرة.. لم تسعفه هذا الفتحات حتى أنه لم يتمكن من التقاط أطراف الطريق..

النافذة الموصدة تطل أيضاً على شرفة بيت جارته سارة..

«كيف افتحها.. مستحيل.. لكن كيف أرى من أحضر الطعام لي؟».

بصعوبة بالغة.. أدار زياد حلقة قفل النافذة..

أحدث ذلك صريراً قوياً..

الحلقة لم تدر منذ فترة طويلة.. ولم تتحرك من مكانها..

حـاول أن يشقّ شيئاً قليلاً من دفتي النافذة بتؤدة بالغـة، كأنّه كان يخشى أنْ تفتح النافذة على قدر هائل من رياح عاتية..

كان يخشى حتى أن يدخل هواء الشارع إلى رئتيه..

لكنّ خشب النافذة متلاصق ببعضه، ويستعصى عليه فتحه..

كان عليه أن يدفع بقوّة أكبر..

شد زنده..

قرّب كتفه..

راح يدفع بكتفه الأيمن بخفّة وبضعف.. ثم صار البطء يشتد، والضعف يقوى..

فجأة، ودون توقع.. وبدفعة قوية واحدة؛ اندفع الجانب الأيمن من النافذة بشدة حتى ارتطم بالجدار الخارجي..

أحْـدَثَ الارتطـام دوياً هائلاً في هـذا الساعة الهادئة من ساعـات النهار، جعل كلّ مـن في الشـارع وعلى الشرفات والنوافـذ يوجهون أبصارهم – عفـواً – نحو مصدر الصوت..

خرج العم خليل من كشكه ينظر..

ورفع الحارس رأسه ليرى مصدر الصوت..

نظرت الجارات والجيران من نوافذ البيوت..

تلاقت عيون أهـل الحي مع عينيّ زياد.. في لحظات خارج الزمن المنصوص عليه في عقد زياد مع نفسه..

فارتـد زياد من فـوره إلى الخلف هلعاً من حياة.. دون حتـى أنْ يجرؤ على الإمساك بالنافذة لإغلاقها من جديد..

امتصّ هواء الخارج كل هواء الغرفة الساكن منذ زمن بعيد..

دخلت أشعة الشمس ولامست الأرض وبعض الأثاث.. كان النور دافئاً..

غمرت زياد مشاعر الماضـي من جديد.. واتسعت حدقتا عينيه أكثر فأكثر وهو يرى أشعـة الشمـس تسقط على فازة قديمة، لطالما كانت أمّـه تملأها بالورود وتضعها على الطاولة عندما يجلسون معاً لتناول الطعام..

ملـىء دهشـة عندما قاده بصره إلى ما رآه قرب الفـازة، كأنّه كان مغيباً عنه منذ فترة طويلـة جداً، ولم يلحظه من قبل – ربما – لضعـف الإضاءة أو لقلة الاهتمام.. ورأى (سماعـة) والدتـه طبيبة الأطفال وقـد تكدس فوقها الغبـار.. وكان غبار يلمع تحت الشمس..

لم يتمالـك زيـاد نفسه أمام ما رأى.. فالذكريات جـددت ثورانها.. لكنّها هذه المرة واقع مرئي، وليست خيالات ورؤى.. إنّها أمامه ماثلة.. كل التفاصيل أمامه..

فهذه آله قياس الضغط ما زالت في مكانها.. وتلك أدوات أخرى وضعت بعناية..

كان أبيه يخطط للعودة من فرنسا خلال أيام قليلة.. لذا ترك أدواته دون أن يضعها في الخزانـة.. كان يظن أنّه لن يتأخر في العودة.. مواعيده مع المرضى مسجلّة على لوحة جدارية قرب مكتبه الصغير..

«زياد.. زياد..».

سمع صوتاً يناديه من الشارع..

إنّه العم خليل بلا شك.. فهو يعرف هذا الصوت تمام المعرفة.. لم يتوقف العم خليل عن مناداته..

«زياد.. اسمعني.. يا زياد.. رد عليّ»..

كانت هذه أول مرة منذ شهور طويلة يرى أهل الحي النافذة مفتوحة..

٢٠ –

الهروب إلى المجهول

بعـد هـذا الموقف الجديد؛ قرّر زياد فجأة مغادرة الحي. وقـد كان القرار مفاجئاً حتى لنفسـه وغير متوقع.. كيف يمكنه أن يـترك المكان الذي يضيء سحراً كلما استرجع ماضيه في جنباته..

انتظر الليل بصبر وأناة طويلين.. وعندما هدأت الأصوات وهجع الناس.. حمل قليلاً مـن أغراضه وبعض أشيائه ومضـى.. مضى في ظلام الليل تحت وجه القمر دون أن يدري إلى أين يذهب؟

كان القمـر رفيقه دائماً.. والقمـر رفيق المتألمين والمعذبـين والتائهين.. الباحثين عن الأمـل في عتمات الليل.. نظـر إلى القمر الذي كاد ينساه ولسـان حاله يقول مثل الشاعر:

ماذا يُريدُ السّقامُ مِنْ قمر كلُّ جَمَال لِوَجْهِهِ تبَعُ؟

تأمل وجه القمر.. وتذكر سارة.. كم قضى من وقت يحكيان فيه عن القمر.. «ألسنا نحن من دورنا القمر».

فكر بالتوجه إلى مكان بعيد قريب من القمر.. إلى الشرق.. أو إلى الجنوب أو الشمال.. حيث يمكن أن يعيش دون أن يعرفه أحد وأن يذكره أحد بالماضي الأليم..

سار دون أن يدري إلى أين المسير.. ماضياً وراء القمر..

ومـن وسيلة نقل إلى أخـرى.. وجد نفسه في مكان ناء بين الجبـال.. في مكان يكاد يصافح فيه القمر..

وجاء الصبح متأخراً تلك الليلة.. كانت الشمس تتلكأ في الخروج من سباتها..

توقـف أمام بستان عنب.. تذكـر أنّ والده كان يحب أكل العنـب الأسود كثيراً.. ويحثه دائماً على تناوله لفوائده الصحية كما كان يخبره دائماً..

زياد كان يدرك أنّه لن يستطيع العيش بعيداً عن داره دون أن يعمل.. هو الآن مرهق وجائع..

فكر أنّه ربما يستطيع العمل في هذا الحقل بجمع العنب..

اقـترب من المكان.. ورأى رجلاً يتأمل العمـال والعاملات وهم يجمعون العنب في الصناديق..

أدرك أنّـه صاحـب البستان أو وكيله.. اقـترب منه في أدب وألقـى التحية.. ودون مقدمات طلب منه عملاً..

نظـر الرجل إليه باستغراب.. لا تبدو على ملامحه صفات العمال والفلاحين. رغم أنّ مظهره يوحي بأنه مشرّد متعب..

ضحك الرجل وقال: «لا نريد هنا مدراء ولا مهندسين.. بل نريد عمالاً»..

التفت زياد حوله.. شعر بخجل من هذا التهكم..

كانت آثار الحسرة تغلف وجهه وقلبه.. قال بكبرياء:

«أرجـوك يا سيدي.. أنـا لا أطلب منك حسنة ولا صدقة ولا معروفاً.. أنا أبحث عن عمـل.. أي نوع من العمل.. ومكاناً أنام فيه.. أنا محتاج إلى ذلك.. ومستعد للعمل

دون كسل.. فإنْ كنتَ لا تريد أن أعمل عندك يكفي أنْ تقول ذلك دون سخرية».

راح الرجل يتفحص عينيّ زياد.. ثم قال: «لعلك هارب من شيء ما.. من أنت وماذا وراؤك؟».

قال زياد وقد أصابه بعض التوتر بلغ قمّة ملامحه، وزاد من حدة احمرار عينيه الغائرتين بانتفاخ:

«مع أنّ هذا الأمر شأني الخاص وليس لأحد حقٌ بالتدخل فيه أو السؤال عنه؛ فإنّ عليك أن تعلم يا سيدي أنّه لا شيء سيء في ماضيي لأخجل منه..

أمّا الآن فأنا احتاج فقط إلى قليل من طعام وكثير من نوم.. فمنذ يومين لم أتناول وجبة كاملة ولم أر للنوم لوناً..

لو كانت لديك فرصة عمل أكون شاكراً.. أو اتركني أتابع طريقي في سلام».

رقّ قلب الرجل..

فرجال الحقل مثل الأرض.. يحبون الحياة ويُنبتون النبت من بذورها..

يسقون الحَبّ بكل الحُبِّ.. ويجمعون الغلال بحنان..

يصادقون التراب..

يغزلون من حبات الرمل أثواباً يرتدونها.. وعقداً لؤلئياً في صورة بهية كأبهى ما يكون الجمال..

هنا يتعلمون من الأرض كيف ينشرون نعمة الحياة.. بالرغم من قسوتها..

الأرض التي تفجر ينبوعها.. هي مدرسة تعلِّم الباحث عن الخير فيها معاني لا يتعلمها الكثيرون..

طلب الرجل من صبي يعمل في الحقل كان يمر قريباً منهما أنْ يحضر بعض الطعام من وجبات العمال..

ثمّ قال لزياد بعد أنْ حضر الطعام: «اجلس يا بني تناول طعامك بسلام وأمان»..

اهتزت مشاعر زياد عندما سمع كلمة «يا بني».. ما أجملها من كلمة..

ثم تابع الرجل:

«اعتبر نفسك في أرضك ودارك.. بين أهلك وناسك.. الحق معك.. لقد كنتُ مخطئاً فاعذرني، كلْ طعامك ثم خذْ قسطاً وافراً من النوم، وبعدها نتحدث بهدوء، ونبحث مسألة العمل الذي تبحث عنه».

اطمأنّ زياد للرجل.. وشعر بارتاح. وبعد أنْ تناول طعامه غلبه النُعاس ونام على بساط الأرض الأخضر.

٢١ –
حديث الحقل

مضى الوقت سريعاً..
استيقظ زياد بعد ساعات.. بعد مالت إلى الزوال..
جلس العمال يستريحون من عملهم يتناولون طعام الغداء..
رأى زياد قطعة كبيرة من القماش وضعت فوقه على جانب الشجرة كخيمة، ترد عنه شعاع الشمس.
شعر زياد براحة وأمان..
أحسّ بحنان أبوي افتقده منذ زمن بعيد..
اطمأنّ إلى الرجل.. وراح يخبره دون أن يسأله بعضاً من قصته..
الرجل كان ينصت باهتمام بالغ..
رقّ قلبه عليه أكثر بعدما علم جانباً من حكايته..
شعر أن زياداً لو قضى في هذا البستان زمناً سوف يهدأ باله وتخفُّ عنه لوعة الفراق..
فكر أن ينصحه بالعودة إلى بيته وإلى جيرانه... لكنّ الرجل كان حكيماً.. فعرض عليه العمل في النهار مراقباً على العمال في البستان، وأنْ يحرس المكان ليلاً مقابل مسكن وطعام.. وبعض المال.
زياد لم يكن يريد مالاً.. كان يريد مكاناً يأوي فيه مع ذكرياته..
ومضت الأيام.
قضى زياد بضعة أسابيع يعمل في البستان بجسده، أمّا عقله فمع أمه وأبيه..

وصار العمال أصدقاءه.. واعتاد حياة الحقل.. والاستيقاظ على ديك الصباح، وخرير الماء..
كلُّ يوم يمضي يعيد الحياة إلى نفسه.. بات يعتاد النسيان.. فما أجمل النسيان عندما يخفف الآلام ويفرش في قلب صاحبها أملاً جديداً لحياة جديدة يأتلفها..
نسج زياد صدقات جميلة مع العمال.. لم يعد حضوره بينهم مجرد علاقة عمل..
تناثرت مشاعر الحب والاهتمام، عوض منهم الكثير من المشاعر التي فقدها..
تذكر العم خليل.. وحارس العمارة.. والجيران كلهم.. طيف سارة ما يزال يملأ نفسه، فيتوهج صدره على جمار لم تذو يوماً..
ومتى تذوب جمار الحب في قلب المحب؟؟
هذه النار لا تطفئها أنهار الماء ولا عواصف الرياح.. بل تزيدها الأنهار اشتعالاً..
كوقود يمرُّ على شرارات يقاذفها بركان متفجر.. والرياح تزيدها تمدداً وتأججاً..
كان في معظم الوقت شارداً.. لم يكن العمال يسألونه عن سبب حزنه.. بل كانوا يتبادلون الفرح عندما يرونه يضحك ويبتسم..
ما أجمل أن يتشارك الناس أفراحهم وأحزانهم..
والجراح الكبيرة تشفيها المشاعر النبيلة..
شعر أنه واحد منهم.. يأكل معهم.. يعمل معهم.. نسي أنه كان طبيباً... أو كاد أن يكون..

٢٢ –
عودة الوعي

وفي يوم.. سمع صيحة كبرى.. من مكان في أقصى البستان..
أحـد العمـال جرح يده جرحا بليغاً وهـو يحاول أن يقطع بالسكـين غصنا يابساً لا فائدة منه..
أسرع العمال وركض معم زياد نحو الصوت..
كان الدم ينزف بغزارة..
أصيب الجميع بصدمة..
صاحـب العمـل غير موجود ولا توجـد سيارة لنقل العامل الجريـح.. والدم ينزف وينزف..
فاسرعوا واتصلوا بصاحب البستان لكي يحضر سيارة إسعاف بسرعة.
في هذه اللحظة..
استعاد زياد ذاكرته.. استعاد وعيه المفقود..
أحس بواجبه نحو هذا العامل الجريح..
لم يكن حد يعلم مدى خبرة زياد في الطب..
بـادر بالركض نحـو غرفة صاحـب العمـل.. وكان يعـرف أن هناك حقيبـة طبية للطوارئ..
دهش الجميع من حركة زياد المفاجئة.. وتساءلوا عما سيفعل ؟!..
ظنـوا أن العامـل سيفقد دمه كله لا محالة ويموت.. فقد وهن جسمه ولم يعد يصيح من الألم..

أحضر زياد الصنـدوق وبدأ يبحث عن الأدوات التي يحتاجها.. وكان هناك لحسن الحـظ أدوات خاصة بتخييط الجراح.. وبدأ يعالج الجريح الذي أصابه خدر من شدة الألم.. لكنـه لم يعد يشعـر بالإبرة وهي تغرز في لحمه وتخـرج منه مرات ومرات.. حتى فقد وعيه تماماً وظن العمال أنه مات..
زيـاد صار يفكر بهذا العامل.. بأولاده.. لا يريد أن يصاب أولاد هذا العامل بمثل ما أصابه من حزن..
وبعد أن أوقف النزيف وخاط الجرح..
رمى بجسده على الأرض..
شاكراً الله لأنه استطاع أن ينقذ العامل من جرحه الكبير..
العمـال من حوله أصيبـوا بالدهشة.. وقفوا لا يتكلمـون.. ينتظرون النتيجة.. وبعد فـترة قصيرة.. عاد للمصـاب وعيه.. وكان بحاجة كما يبـدو لكثير من الدماء التي سالـت منه.. فطلب زيـاد أن يحضروا له عنبـاً يأكل منه.. فهو يعـرف قيمة العنب الغذائية..
وفي هـذا الوقت وصل صاحب البستان ومعه سيارة أسعاف.. وتفاجأ بما حدث.. ثم قامت السيارة بنقل العامل لمتابعة حالته في المستشفى..
أدرك صاحب العمل أنّ ما فعله زياد لا يفعله إنسان لا يعرف بالطب..
فقصـ عليه زياد حكايته وكيـف كان يساعد والديه في عملهمـا وأنه درس في كلية الطب لمدة سنتين.
نظر إليه صاحب البستان بحب وامتنان وقال بحكمة الشيوخ : «أدركتَ يا بني قيمة عملك.. وعلمـك.. هناك كثير من الناس يحتاجون إليـك.. وإن كنت تريد الوفاء لوالديك عليك أن تتابع طريقهما.. لا أن تعتزل الدنيا وتخاصمها»..

٢٣ –
العودة إلى الديار

خلص زياد من هذه التجربة بالكثير الكثير..
علـم أنّ الحياة تحب ولا يجب أن تتوقـف.. وأنّ عليه الانتصار لا الانكسار... ومهما كانت المصيبة كبيرة فإنّ الحياة تمضي وتمضي بلا توقف واستسلام.. وهناك كثير من الناس يحتاجون إليه..
فكم من أناس يمكن أن ينقذهم كما أنقذ العامل فعاد إلى بيته وأولاده..
ولولا مساعدته لذاق أولاده المرارة نفسها..
عندهـا قرر زياد العودة إلى حيّـه قاصداً بيته.. والعودة إلى الحيـاة احتراماً لموت من يحب.. فليس هنالك مبرر لهذا الهروب الكبير..
وفي هذه اللحظة تذكر سارة..
أدرك أنّه أخطأ كثيراً بموقفه نحوها..
لكـنّ الأمـر انتهى.. ولم تعد هذه المسألـة تحتاج لنقاش.. عليـه أن يعود إلى بيته.. وأن يعمـل وأن يعود للدراسة.. سيجد بين المدرسين من يساعده.. ولا سيما عميدة الكلية..
عندما وصل إلى الحي.. توجه فوراً إلى كشك العم خليل... كان العم خليل مشغولاً بتوضيب بعض الصناديق.. ناداه بنبرة محب..
التفت إليه العم خليل.. ولم يتمالك نفسه.. فرمى ما في يده من بضاعة.. ثم قفز من السلم الذي كان يقف فوقه.. وراح يقبل زياداً ويحضنه قائلاً: «أين كنت يا ولدي.. لقد اشتاقت إليك قلوبنا جميعاً»..

فـرح زياد بهذه المشاعر العظيمة.. وأكد لـه أنّه الآن أصبح بخير.. ثم قال له إنه يريد الذهاب إلى بيته ليرتاح.. واعداً بأنّه سيخبره بتفاصيل ما حدث معه لاحقاً.. ثم همّ بالانصراف..
فاستوقفـه العم خليل وعلـى وجهه علامات الارتباك وقـال: «لا تذهب إلى البيت الآن.. تعال معي إلى بيتي نتناول طعام الغداء، لا شك بأنك جائع»..
لكـن زياداً لم يستجب لدعوة العـم خليل.. ومضى مسرعاً حتى وصل إلى مدخل العمارة، فأقبل عليه الحارس لما رآه وعلى وجهه ارتسمت أمارات الفرح..
ضمه إلى صدره قائلاً: «لقد عدت يا ابن الإحبة»..
وبعد أن طمأنَ الحارس عليه.. أستأذنه زياد للصعود إلى البيت..
فقال الحارس بحزن وبزفرة خرجت من أعماقه: «آسف يا سيدي.. لا يمكنك دخول البيـت الآن.. لقد باعـه (وكيل العمارة) بالوكالة التي وقعتهـا له.. ولم يعد البيت بيتك»..
صدم زياد من هذا الخبر.. فأمسك الحارس يده بحنان ثم أدخله إلى غرفته.
أخبره الحارس أن الوكيل عرض البيت للبيع.. وعندما علم الجيران بذلك لم يقبلوا بـأن يشتريه أحد من خـارج الحيّ، فهم جميعاً لا ينكرون فضـل والدك ووالدتك، ويحملون لهما ذكرى طيبة..
عرضـ كثير من الناس شراء البيـت، وفي النهاية اشتراه أحد الجيران بسعر مرتفع.. لكنّه لم يسكنه ولم يغيّر به شيئاً.. وترك كل شيء فيه على حاله..
ثم قـال الحارس بصوت مرتعش: «البيت الآن هو ملـك رجل تعرفه جيداً... رجل أحبـك وأحب أسرتك بصدق.. ويكن لـك كل احترام». ثم قال: «لقد اشتراه أبو سارة»..
عندما سمع زياد اسم سارة.. اختل توازنه.. وسقط على الأرض مغشياً عليه..

٢٤ -... وأخيراً

وجد زياد نفسه مستلقياً عل كنبة في غرفة الحارس.. أراد رفع رأسه فشعر بصداع شديد.. سمع الحارس حركته فقدم غليه على الفور وأحضر كوباً من عصير الليمون الطازج.. وحبتين لصداع الرأس.. وطبقاً من (سلطة الخسّ مع جبنة بلغارية).. فوجىء زياد بالطبق.. فما زال حارس العمارة يذكر ما يحب.. سمع الحارس يقول له: «كنت تذكر اسم سارة هذيانك.. واضح أنك ما زلت تحبها».

فقال زياد بعد أن شهق شهقة عميقة كادت تخرج معها روحة:

«وما نفع هذا الكلام اليوم يا عمي.. لقد ذهب الحلم.. وأخذ معه كل الأحبة»..

ابتسم الحارس، وتأمل عيني زياد طويلاً ثم قال: خفت أنك تغيرت.. لقد عدت إلينا.. زياداً ابن الدكتور رمزي والدكتورة صفاء.. عدت إلينا.. لأننا بحاجة إليك.. كما كنا بحاجة لوالديك».

أجابه بصوت كئيب: « لقد فقدت كل شيء».

اقترب الحارس من زياد وكأنّه يريد أن يقول له سراً دون أن يسمعه أحد:

«أتذكر يا زياد الطعام الذي كان يصل إليك من حين لآخر.. في الأيام الأخيرة قبل أن تغادرنا فجأة؟».

قال بلهفة: «نعم.. نعم.. أذكر ذلك جيداً»..

«كان أهل الحي يريدون أن يمنعوا عنك الطعام ليجبروك على الخروج من عزلتك.. لكن يداً حانية مجهولة كانت تأتي خلسة وتضع الطعام وترحل.. كنت أراها وأغض الطرف.. كأني لا أراها..»

«قل لي بسرعة.. من.. من؟».

«إنها سارة يا زياد».

«سارة.. لقد ظلمتها كثيراً.. لقد كنتُ بلا عقل ولا وعي معها.. كنت مجنوناً عندما تركتها للتتزوج من رجل آخر..».

ابتسم الحارس ابتسامة رضا وسأله: «أما زلت تحبها؟».

«لا حق لي بذلك اليوم.. فهي الآن متزوجة.. لا استحقها.. لقد غدرتُ بها ورحلت.. ها قد عدت إلى الوجع والألم من جديد.. وكأن الألم لا يريد أن يفارقني يوماً».

قال الحارس بصوت مبتهج سعيد: «هدئ من ورعك يا بني.. واسمع مني هذا الخبر الجميل الرائع.. سارة ما زالت تنتظرك.. سارة لم تتزوج.. فسخت خطوبتها بعد أيام من مغادرتك الحي.. لم تستطع الزواج من أحد غيرك.. ما زالت تنتظر عودتك.. وقد اشترى أبوها البيت إكراماً لها.. فقد كانت صدمتها كبيرة»..

وقف زياد واجماً لا يستطيع الكلام.. وكأن الحياة عادت تبتسم له من جديد.. وكأنّ الفرح يريد أن يبتلعه الآن.. قال الحارس: «وهناك أمر مهم أيضاً.. هل تذكر صديقك وجارك عصام.. عصام المحامي؟ قال لي إنه متأكد أنه يستطيع أن يعيد إليك العمارة التي سرقها منك الوكيل بغير حق، وحتى وإن كان معه توكيل منك صحيح وقانوني.. سيثبت أنه خدعك، وأنك لم تقبض منه ثمن العمارة.. وأنه سحب أموالك من حسابك دون إذنك.. وباع بيتك دون حق.. لا تقلق.. المحامي عصام يعتبر هذه القضية قضيته، وقد كان ينتظر عودتك ليباشر بالدعوة بتوكيل منك».

نظر زياد من نافذة غرفة الحارس.. راح يبحث عن شرفة سارة.. وكأنه لا يصدق ما يسمع.

(االنهاية)

الكويت ٢٠١١/٤/٤